البرتقال الحزين وخانة الاستلام

قصة بقلم أحمد سويد

بلغت الساعة العاشرة وما زال ينتظر دوره في ذيل الطابور . انه منذ السابعة صباحا وهو مزروع كالجذع اليابس أمام مركز التوزيع ، وبطاقته الصفراء في يده ، يشد عليها بقرف داخلي ، مجهول المنابع ، ويحس لزوجتها بين أنامله الفليظة المرطبة بعرق خفيف بارد .

وفي رأسه تضج صنوج غريبة ، وتتراكل أفكار سريعة التوالد ، تغرقه بفيض من المشاعر المتناقضة العجيبة ، فهو تارة قزم بلا أبعاد ، وتارة جثة يجرجرها الضياع والصمت والكلاب ، وهو طورا جرذا بلا مأوى ، يطارده رعب لا هوية له فوق مزابل المخيم .

مزابل المخيم ؟ لقد كاد البارحة يدخل في عراك مع الدورية دفاعا عن هذه المزابل ... وابتسم بمرارة :

ـ هل يوجد انسان في الدنيا يدافع عن المزابل ؟

أجل ... لقد كان هو ذلك الانسان ... ولكن ما الحيلة ، وقد راح أفراد الدورية ينظمون المحاضر بسكان الاكواخ ، فتقدم منهم يسألهم :

ـ وأين تريدون أن نلقي النفايات ؟ ولماذا لا ترسلون لنا سيارة تحملها الى خارج المخيم ؟

فنهره الشاويش ، رئيس الدورية ، لانه يدس انفه بما لا يعنيه . ولم يسكت هو عن الاهانة ، وكاد الامر يتطور لولا أن تدخل بعض العقلاء وفضوا المشكل ، ولكن عين الشاويش ظلت محمرة عليه ، وقد قرر « حضرته » ـ كما قيل له ـ أن يضيف اسمه الى لائحة المشاغبين المدمنين على الشر .

... ولكزته برفق سيدة كانت تقف وراءه ، وأشارت الى طفلها المتشنج القسمات كأنها تعتذر :

ـ هل تسمح لي بدورك يا سيد ؟

فأدرك ان صراخ طفلها هو ذلك الشيء الذي ما فتىء منذ نصف ساعة يثقب مؤخرة رأسه ، فتراجع دون أن يلتفت ليعطيها مكانه ، ولم يلبث أن تسمرت عيناه على وجه الطفل الذي ما زال يبكي . وكان كلما أمعن النظر في هذا الوجه ، ساوره شعور بأن ثمة مفرزا يثب من الوجه الصغير لينفرز في عينيه .

الوجه أسمر مستدير ولكنه ممصوص ، والعينان ميتتان ترسو على موانئهما فصيلة كاملة من الذباب الكسول ، واستدارتهما تذكره بالرقم الذي يكره ، رقم ٥ ، هذا الرقم المشؤوم ما فتىء يلاحقه منذ الخامس من حزيران ، يثب عليه عند كل صباح ، من مفكرة مصلوبة في الجدار ، فيصفعه بقسوة ، ويركله بوحشية ، ثم يتفل بلؤم في شاربيه الهندسين ، ويقهقه طويلا طويلا ، ساخرا من رجولته .

وهذا الصباح بالذات ، عندما أيقظته أمه لتذكره بأن اليوم هو موعد توزيع الاعاشة ، تعارك بضراوة مع الرقم المشؤوم ، ولاول مرة شعر ، في نهاية العراك الطويل ، انه بدأ يعرف كيف يقهر خصمه ، لقد مد له اللعين لسانه كالعادة ، جلده ، أغرق وجهه بالبصاق ، فرد عليه هو بهدوء أعصاب :

ـ سترى أيها النذل .

... وصراخ الطفل ما زال يثقب عينيه ، والطابور ما زال طويلا وهو في ذيله ينتظر دوره .

قد يكون الطفل ممفوصا ، وقد يكون جائعا ، سيان عنده ، ولكن أيجوز أن يبقى هو في ذيل الطابور ينتظر دوره ؟

... والبارحة سافر أحمد ، وقبل البارحة انطلق سعيد وفهمي ، وآخرون كثيرون انطلقوا الى حيث يموتون بلا أسماء ، وما زال المخيم كله يتحدث عن المسافرين الذين لم يودعوا الاهل والاحباب .

جارتهم حسنية علقت على سفرهم :

ـ مساكين ... منيتهم جرتهم الى هناك !

فنهرتها أمها بعتب :

ـ بل أبطال يا بنية ، لبوا نداء الكرامة .

وسمع أبوه الحوار الخاطف ، فرمقه بطرف عينه المريضة ، ثم أغضى حياء .

« مسكين أبي . الشعور بالاثم ما زال يلاحقه منذ عشرين عاما ، لقد ترك يافا هاربا ، لم يدافع عن بيارتنا ، ناداه برتقالها الحزين فلم يجب ، استنجد به فما لبى ، وهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يواري خجله كلما سمع شيئا عن الوطن الضائع ، ولا أن يحبس دمعه كلما وقعت عينه على حبة برتقال » .

... والطابور ما زال طويلا ، وهو في ذيله ينتظر دوره :

وهذه « أم جابر » تمر به باكية ... لقد رفض مدير المركز أن يسلمها اعاشة الشهر ، لان بطاقتها ـ كما أدعى ـ محكوكة ، وحضرة المدير متحذلق صارم لا يسمح لاحد أن يدوس على ذيله وأن يتباهى يوما بأنه استطاع أن « يمرقها » عليه .

... وتنفتح عروقه من الحنق ، ويهم بأن يثب من مكانه ليجدع أنف المدير المتغطرس .. ولكنه يهدأ فجأة كمن حقنت عروقه بماء مثلج :

ـ لا بأس يا حضرة المدير ... هي ذي يافا على خطوات مني ، وهذه هي بيارتنا ، ان برتقالها الكئيب يتدلى من فوق السور الذي سيجه والدي ذات يوم بشظايا الزجاج ليحميه من اللصوص ، ولكن اللصوص استباحوه رغم ذلك ... وتلك هي راشيل تخرج من الباب الكبير ، وسلتها ملأى ببرتقالنا . لكم أشتهي أن أقضم واحدة ... واحدة فقط من برتقالنا ...

ويدير لسانه في فمه ، فيستشعر تحت لسانه طعم التراب والعجز ، وتتسمر راشيل أمام عينيه ، وسلتها في كوعها ، وعلى ثغرها الماجن بسمة ازدراء وتحد وسخرية .

... والطابور يتحرك ببطء ، وهو ما زال في ذيله ينتظر دوره ..

... البارحة أوقف أحد الزبائن ، أمام محطة البنزين التي كان يعمل فيها ، سيارته الاميركية الفارهة ، وكان هو يسرح في جنبات بيتهم بيافا : صورة جده بشاربيه الابيضين الجليلين لم تعد تزين صدر الدار ، وتملأها مهابة ، لقد حلت محلها صورة كبيرة ملونة لدايان ... عين الجنرال الوحيدة التي تقطر ثعلبية ووحشية حدجته عندما دخل بحنق وذعر كأنها تصيح : اقبضوا عليه ... ويهرب من العين الخبيثة الى غرفة النوم ... هذا سرير أمه الجوزي ما زال مكانه في الزاوية الشرقية ، ولكن آية الكرسي لم تعد فوقه تحرسه . لقد نزعت من مكانها واستلقت محلها على الجدار بغي مزهوة بعريها الكامل الوقح ... ويغطي عينيه :

يا عيب الشوم ... ويهرب الى المطبخ ... أمه واقفة أمام المجلى تقلي السمك . آه لكم يحب السمك الذي تقليه أمه .

... ويزعق به صاحب المحطة ، وزمور السيارة الاميركية

الفارهة ، فيهرع الى الزبون يلبي رغبته .

... والوقود يتدفق الى خزان السيارة بهدوء وغزارة ، وهو يدور حول بيتهم في يافا : لقد يبست العريشة التي كانت تظلل المصطبة ، وماتت الياسمينة التي كانت تعرش فوق المدخل ... وهرمت شجرة التين في أقصى الحديقة وركبها الهم والحزون .

... ويطوف خزان الوقود ، ويتدفق السائل الثمين على الارض التي تلسعها شمس حزيران ، ويصفعه معلمه بقراره الصارم :

ـ يا بغل ... انت مطرود من العمل فورا .

مطرود من العمل ؟ طز ... وماذا يضيرني ذلك ، فانا مطرود من بيتي في يافا ، مطرود من الحياة ، مطرود ....

ويحس بالاختناق ، فينتفض .

... والطابور يوشك أن يذوب ، وهو في ذيل الطابور ينتظر دوره .

... والاذاعة كانت مساء أمس تصف هجوما للفدائيين على تل أبيب ... لقد كانوا خمسة ، تنكروا بزي عمال التنظيفات ، وأخذ كل واحد منهم مكانه في ناصية شارع من شوارعها ... وفجأة تتحول المكانس في أيديهم الى رشاشات ... وتندلع النار من فوهاتها فتكنس الجرذان والاقذار وينطلق منها الذعر ليقتحم البيوت المسروقة، البيوت التي يؤرق حجارتها التحنان والانتظار ... ويصاب واحد من الابطال الخمسة ، ويتراكض اليه جنود العدو حين يسقط ، ويتحلقون حوله حذرين ، وتبحلق فيه بنادقهم من بعيد فيبتسم لهم بازدراء :

ـ تقدموا أيها الجبناء ...

ويتقدمون ... فاذا الجريح لغم بشري ينفجر بينهم ، فيتساقطون حوله كالحشرات المسمومة .

... ويداخله شعور بالزهو ، ويهمس بحماس مكبوت : الله أكبر.

... وأمه أمام الخيمة ، وجاراتها يتربعن حولها ، وعيونهن شاخصة الى شفتيها ، وهي تحدثهن عنه بلهجة أسطورية ونشوة صوفية :

حمدي نسف مصفحة اسرائيلية ...

حمدي اقتحم مع زميلين له مستعمرة في الحولة ...

حمدي تسلل الى معسكر للعدو قرب أريحا ، وأخذ من فيه من الاعداء على حين غرة ...

حمدي اشتبك مع احدى الدوريات بالسلاح الابيض وقضى على عدة أفراد منها ولم يصب الا بخدش في ذراعه ...

حمدي أقسم لي في رسالته انه زار بيتنا في يافا ، وبعث لي كدليل على صدقه ، حفنة من تراب بيارتنا ...

حمدي .....

... ويخرجه من دوامة تصوراته صوت مدير المركز :

ـ يا أفندي ، مالك « سهيان » ؟ تفضل ...

فيتقدم ، ويلقي البطاقة الصفراء أمام المدير ، فيتناولها حضرته بشيء من التقزز ، ويدنيها من نظارتيه السميكتين ، ليتهجى ما دون فيها بصوت نصف مكتوم :

ـ حمدي حسن الجش . عدد أفراد العائلة خمسة . لاجيء في مخيم الرشيد .

... ويغمض عينيه نصف اغماضة ، كأنه يحاول أن يتذكر شيئا ما ، ثم يبحلق من جديد ليقارن بحذر ، بين الصورة الملصقة على البطاقة وأصلها الماثل أمامه ، حتى اذا اطمأن الى تطابقهما ، وأمن التلاعب والغش ، أصدر أوامره لمساعده بلهجة يشوبها تردد غامض الاسباب :

ـ عشرة كيلو طحين ، خمسة برغل ، ثلاثة سكر ، واحد زيت .

... وينفذ المساعد أوامر مديره بتباطؤ ، ويقدم الجدول لحمدي :

ـ توقيعك الكريم في خانة الاستلام .

... ويهم حمدي بالتوقيع ، ولكن صورة أمه تنتصب أمامه وهي جالسة أمام الخيمة بين جاراتها ، تشم حفنة التراب بزهو ، وتمرغ بها وجهها ، وتقسم لهن انها من تراب بيارتهم في يافا ... فيرفع رأسه بكبرياء ، ويتجه نحو مدير المركز الذي كان ما يزال يتأمل البطاقة الصفراء ، ويحاول أن يتذكر ما وشوشه به شاويش المخفر عندما مر به في الصباح .

وينتزع حمدي بطاقته من يد المدير ، ويمزقها بهدوء ، ثم يلقي بنتفها الصفراء في الوجه الاصفر ، ويروح يعدو بعيدا عن المخيم ، وفي رأسه تضج صنوج غريبة ولكنها حلوة الرنين ، وتبسم له عند الافق عيون رفاق طيبين يموتون بلا أسماء ، وتسمر الخيمات ـ مع ذلك ـ على حكايا بطولاتهم .

بيروت

أحمد سويد

الوجه الآخر لأميركا ... الفقر في الولايات المتحدة

بقلم ميكايل هارنفتون

ليس « الوجه الآخر لاميركا » رحلة عاطفية يقوم بها في احياء « ولفير ستيت » كاتب اميركي غاضب امام الخمسين مليونا من الفقراء المنسيين المنبوذين . بل ان « ميكايل هارنفتون » يعلن غضبه وثورته بصفته عالما اجتماعيا واقتصاديا . ان الفقر في الولايات المتحدة كتلة ، دولة ضمن الدولة ، نظام خلقه نظام. وليس فيه ما يشبه البؤس الاسيوي الذي يعتبر القضاء عليه هدفا قوميا لانه نصيب الاكثرية . ولكن هل يستطيع الاميركيون الذين ينعم ثلاثة ارباعهم باعلى مستوى للحياة في العالم ان يتحملوا وقتا طويلا مشهد هذا الفقر الذي لا مثيل له ، وهؤلاء الفقراء (الخمسين مليونا) الذين لم يعرف التاريخ اعجب منهم ؟

والمؤلف يبرهن ، كما يقول كاتب المقدمة كلود روا ، ان كون الانسان فقيرا لا يعني انه يملك مالا اقل من غيره ، بل ان القلة لديه في كل شيء ، في الذكاء ، في الصحة المعنوية والبدنية ، في الروح الاجتماعية . « ان الفقر لا يعني ان الانسان يملك اقل ، بل يعني ايضا انه يعيش اقل ! » .

يصدر في الشهر القادم